عمر الشعر الجاهلى

عود على بدء

عادل سليمان جمال*

بداية الشعر الجاهلى أمر مشكل، خاض فيه العلماء قديما وأدلى فيه المحدثون دلاءهم، فما عبره الأول ولا وصلت إليه أرشية الآخرين. وقلما يغفل كتاب عن تاريخ الأدب العربى هذه المسألة، ولكن أكثر ما فى هذه الكتب مكرور معاد، اتكأ فيه اللاحق على السابق العربى والغربى، سواء بسواء. وكلام الدارسين العرب معروف متداول، أما آراء المستشرقين فى هذا المجال فيمثلها Nicholson، يقول:

«الأدب [يعنى به الشعر] الذى بين أيدينا الآن - وكان فى ذلك الوقت أدبا شفهيا حفظ عن طريق الرواية، ولم يدون إلا بعد ذلك بأمد طويل - لا يمثل إلا قرنا واحدا من العصر الجاهلى، حوالى سنة ٥٠٠ إلى سنة ٦٢٢، وهى السنة التى هاجر فيها محمد (ﷺ) إلى المدينة، والقصائد التى وصلت إلينا تعود إلى هذه الفترة»(١).

ولا يمكن بأية حال من الأحوال أن تكون قصائد القرن السادس هذه هى بدايات الشعر العربى، وإنما هى - كما لاحظ Lyall - نتاج ممارسة طويلة عبر زمن غير قصير لهذا الفن، فنظام الأوزان المعقد والمرن فى آن، والشكل الذى لا يكاد يختل من طلل ونسيب ورحلة... إلخ، واللغة التى تكاد أن تكون واحدة فى مفرداتها وتراكيبها ونحوها ومجازها، كل ذلك يشير، دون شك، إلى زمن متطاول استلزمه هذا الإحكام لعناصر القصيدة(٢).

ولعل ابن سلام (-٢٣١) هو أقدم من أشار إلى أمر عمر الشعر الجاهلى، فهو يرى أنه «لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل فى حاجته، وإنما قصّدت القصائد وطوّل الشعر على عهد عبد المطلب، وهاشم بن

* أستاذ الأدب العربى بجامعة أريزونا.

عبد مناف»(٣). أى أن القصائد بدأت فى الظهور فى أوائل القرن السادس الميلادى، ويرجع ابن سلام هذا الفضل إلى مجموعة من الشعراء على رأسهم المهلهل، يقول: «وكان أول من قصّد القصائد وذكر الوقائع، المهلهل بن ربيعة التغلبى فى قتل أخيه كليب وائل... كان امرؤ القيس بن حجر بعد مهلهل، ومهلهل خاله، وطرفة وعبيد وعمرو بن قميئة والمتلمّس فى عصر واحد» (٤).

ثم يأتى الجاحظ(-٢٥٥)، وهو بلا ريب قد اطلع على كتب ابن سلام، فكتب الجاحظ حافلة بالنقول عن مؤلفات ابن سلام، فلا يعتد بما قاله ابن سلام، أو قل يحاول ما لم يحاوله ابن سلام حرصا وتأنيا، فحدد لتاريخ الشعر العربى ميلادا، يقول:

«وأما الشعر فحديث الميلاد، صغير السن... ويدل على حداثة الشعر قول امرئ القيس بن حجر:

١ـ إن بنى عوف ابتنوا حسبا
ضيعه الدخللون إذ غدروا
٢ ـ أدوا إلى جارهم خفارته
ولم يضع بالمغيب من نصروا
٤ ـ لا حميرى وفَى ولا عدس
ولا است عير يحكها الثفر
٥ ـ لكن عوير وفَى بذمته
لا قصر عابه ولا عور

فانظر كم كان عمر زرارة! وكم كان بين موت زرارة ومولد النبى عليه الصلاة والسلام؟ فإذا استظهرنا الشعر ـ وجدنا له ـ إلى أن جاء الله بالإسلام ـ خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتى عام»(٥).

والشعر الذى استشهد به الجاحظ تقوية لحجته نظمه امرؤ القيس بعد مقتل أبيه على يد بنى أسد (٦). وقد ترك الجاحظ بيتا من هذه المقطوعة لابد من إيراده حتى تتضح الصورة، وحقه أن يكون بعد البيت الثانى، وهو:

٣ ـ لم يفعلوا فعل آل حنظلة
إنهم جَيْر بئس ما ائتَمروا

أما بنو حنظلة فأسلموا شرحبيل ـ عم امرئ القيس ـ يوم الكلاب، فقتله أبو حنش التغلبى (البيت الثالث)، وكذلك كان شأن حميرى وعدس، لم يجد عندهما غناء (البيت الرابع). أما عوير بن شجنة (البيت الخامس) فقد آوى إليه هنداً أخت امرئ القيس وقطينها، وخرج بهم فى ليلة طخياء حتى أطلعهم نجران وقال لهند: «إنى لست أغنى عنك شيئا وراء هذا الموضع، وهؤلاء قومك، وقد برئت خفارتى» (٧).

ويبدو أن الجاحظ قد توصل إلى هذه الطريقة الحسابية لتحديد عمر الشعر الجاهلى كما يلى (٨): مات زرارة بن عدس ـ وهو من سادة تميم وأشرافها ـ خلال حكم عمرو بن هند، ملك الحيرة (٥٥٤ - ٥٦٩) قبل يوم أوارة الثانى (٩). وكما هو معروف فإن رسول الله (ﷺ) ولد سنة ٥٧٠، بعد موت عمرو بن هند بعام أو نحوه، ومن ثم فموت زرارة كان قبل مولد رسول الله (ﷺ). وهذا يستتبع أن يكون قبل مبعث رسول الله (ﷺ) بخمسة وأربعين عاما حين كان فى الأربعين من عمره. وكان زرارة رئيس تميم أربعين عاما أو تزيد، ورأس أبوه عدس قبل تميما أربعين عاما أيضا. فإذا جمعنا سنين هذه الفترات كان الناتج ما بين مائة وخمسة وعشرين عاما إلى مائة وثلاثين عاما. وإذا أضفنا إلى ذلك سبعين عاما أو نحوها للزمن الذى سبق عصر امرئ القيس وعاش فيه شعراء مثل ابن خذام، تحصل لدينا بغاية الاستظهار الأعوام المئتين التى جعلها الجاحظ عمر الشعر الجاهلى.

وبون بعيد بين ما ادعاه الجاحظ وما قال به ابن سلام. فبينا يقرر ابن سلام أن مهلهلا قصّد القصيد، يرى الجاحظ أن بداية الشعر العربى تسبق ذلك بعقود قليلة. ولا يعقل أن يبدأ الشعر العربى من فراغ ليصل إلى ما وصل إليه على يد مهلهل وامرئ القيس خلال نصف قرن من الزمان. ولكن من الملاحظ أن الجاحظ ربما كان قد عدل عن ذلك الرأى فى أواخر كتابه، وتحاشى أن يحدد تحديدا قاطعا عمر الشعر الجاهلى، قال: «وقد قيل الشعر قبل الإسلام فى مقدار من الدهر أطول مما بيننا اليوم وبين أول الإسلام» (١٠)، أى بين الوقت الذى كان يعيش فيه، وهو منتصف القرن الثالث

الهجرى وأول الإسلام، وعلى هذا الافتراض تكون بداية الشعر الجاهلى ما بين منتصف القرن الرابع وأول الخامس الميلادى. وهذا الافتراض أقرب للصحة، وإن لم يكن صحيحا تماما، لأنه يتفق وتاريخ الأمة العربية فى جاهليتها، كما سأبين فيما بعد. والجاحظ نفسه يقول:

«فكل أمة تعتمد فى استبقاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال وكانت العرب فى جاهليتها تحتال فى تخليدها بأن تعتمد فى ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى، وكان ذلك هو ديوانها... وذهبت العجم على أن تقيد مآثرها بالبنيان... والكتب بذلك أولى من بنيان الحجارة وحيطان المدر، لأن من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم، وأن يميتوا ذكر أعدائهم، فقد هدموا بذلك السبب أكثر المدن وأكثر الحصون»[١١].

وقد ذكر ابن سلام ـ قبل الجاحظ ـ أن «الشعر فى الجاهلية عند العرب ديوان علمهم ومنتهى حكمهم، به يأخذون وإليه يصيرون»[١٢]. ويقول Lyall فى هذا الشأن، وقد أصاب:

«ليس هناك غير الشعر الجاهلى ينطبق عليه تعريف ماثيو أرنولد للشعر بأنه نقد الحياة. فليس هناك أمة نجحت نجاحا تاما فى إعطاء صورة عن نفسها: خيرها وشرها، قوتها وضعفها غير الأمة العربية، ومن ثم فالشعر الجاهلى هو بلا مراء تاريخ هذه الأمة فى ذلك العصر»[١٣].

وإذا كان ذلك كذلك، فلا جرم أن تعتد كل قبيلة بشعرائها؛ فهم المخلدون لمآثرها، المشيدون بكرمها وفضائلها المنافحون ضد عداتها. ونص ابن رشيق التالى يصور أوضح تصوير هذه العلاقة الوطيدة بين دور الشاعر من حيث هو فنان، ودوره بوصفه مؤرخا:

«كانت القبيلة إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها، وصنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعون فى الأعراس. ويتباشر الرجال والولدان، لأنه حماية لأعراضهم، وذبٌّ عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم. وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ فيهم، أو فرس تنتج»[١٤].

ومن ثم، اجتهدت كل قبيلة فى الحفاظ على أشعار شعرائها لأنها محض تاريخها وسجل مفاخرها وأنسابها ومحتدها، ومعلقة عمرو بن كلثوم النونية خير مثال لذلك، فقد كانت:

«بنو تغلب تعظمها جدا ويرويها صغارهم وكبارهم، حتى هجوا بذلك، قال بعض شعراء بكر بن وائل:

ألهى بنى تغلب عن كل مكرمة
قصيدة قالها عمرو بن كلثومِ
يروونها أبدا مذ كان أولهم
ياللرجال لشعر غير مسئوم»[١٥].

فالشعر الجاهلى، إذن، لم يكن مجرد فن يعبر الشاعر من خلاله عما يعتمل فى صدره من الأحاسيس، ولكنه كان أيضا سجلا لتاريخ القبيلة فى تعدد نواحيه على مدى الأزمان، ومبعث تواصل لوجودها على مر الأيام وفى كل آن. فإذا صح ذلك ـ وهو صحيح فيما نتصور ـ جاز لنا أن نقول إن الشعر العربى لا تعود بداياته ـ كما ذكر الجاحظ فى الموضع الثانى من كتابه ـ إلى أواسط القرن الرابع وأوائل الخامس، بل أقدم من ذلك بكثير ـ قدم تاريخ القبائل العربية ذاتها. وقد أبدى جب Gibb ملاحظة سديدة فى هذا الشأن حين قال:

«لقد خاض الشعراء المعارك بأشعارهم بقدر ما خاضها المحاربون بسيوفهم ورماحهم، بل أربوا على المحاربين فى هذا المضمار»[١٦].

دعنا نبدأ – فى بحثنا عن عمر الشعر الجاهلى ـ بمناقشة الرأى الذى سلم به أكثر الباحثين، قدماء ومعاصرين، نقلا عن ابن سلام [١٧]، وهو أن المهلهل أول

من قصّد القصائد، وإنما سمى مهلهلا لهلهلة شعره، أى سلاسة بنائه. وفصل ابن الأعرابى هذا الكلام فقال: «المهلهل مأخوذ من الهلهلة، وهى رقة نسج الثوب، والمهلهل: المرقق للشعر، وإنما سمى مهلهلا لأنه أول من رقق الشعر»[١٨]. ولكن عمر بن شبّة خالف ذلك الرأى. نقل السيوطى عنه ما يلى:

«للشعر والشعراء أول لا يوقف عليه. وقد اختلف فى ذلك العلماء. وادعت القبائل كل قبيلة لشاعرها أنه الأول، ولم يدعوا ذلك لقائل البيتين والثلاثة، لأنهم لا يسمون ذلك شعرا. فادعت اليمانية لامرئ القيس، وبنو أسد لعبيد بن الأبرص، وتغلب لمهلهل، وبكر لعمرو بن قميئة والمرقش الأكبر، وإياد لأبى دؤاد. قال: وزعم بعضهم أن الأفوه الأوْدى أقدم من هؤلاء وأنه أول من قصّد القصيدة»[١٩].

فهو يرى أن العصبية دفعت مختلف القبائل إلى نسبة ذلك الفضل إلى شاعر من شعرائها.

من هذه القلة أيضا التى رفضت ما ذكره ابن سلام: أبو العلاء المعرى. فى (رسالة الغفران) يسأل ابن القارح ـ فيمن يسأل من أهل النار ـ المهلهل:

«فأخبرنى لم سميت مهلهلا؟ فقد قيل إنك سميت بذلك لأنك أول من هلهل الشعر، أى رققه! فيقول: إن الكذب كثير. وإنما كان لى أخ يقال له امرؤ القيس، فأغار علينا زهير بن جناب الكلبى، فتبعه أخى فى زرافة من قومه فقال فى ذلك:

لما توقّل فى الكراع هجينهم
هلهلت أثأر مالكا أو صِنبْلا

هلهلت: أى قاربت، ويقال: توقفت. ويعنى بالهجين: زهير بن جناب، فسمى مهلهلا. فلما هلك شبهت به، فقيل لى: مهلهل.

فيقول: الآن شفيت صدرى بحقيقة اليقين»[٢٠].

فواضح أن أبا العلاء ينكر أن يكون المهلهل هو أول من رقق لغة الشعر، وأنه لم يلقب بهذا اللقب لفعله هذا، بل لشئ آخر تماما. وبذلك بطل عند المعرى تفسير ابن سلام لهذا الفعل وما استتبعه من تلقيب، وكذلك بطل عنده ما قاله ابن الأعرابى، وهو تفسير سبق إليه أبو عبيدة، قال:

«وإنما سمى مهلهلا لأنه هلهل الشعر، يعنى سلسل بناءه»[٢١]. وفوق ذلك تجاهل المعرى مسألة سبق المهلهل غيره من الشعراء إلى تقصيد القصائد، وإطالة المقطوعة من عدة أبيات إلى ثلاثين بيتا، كما ذكر الأصمعى[٢٢].

وقف عمر بن شبة والمعرى عند حد الإنكار ولم يجاوزاه. لم يقل أى منهما إذا لم يكن المهلهل هو أول من قصد القصائد فمن يكون؟ وسوف أحاول فيما يستقبل من الصفحات أن أجيب عن هذا السؤال حسب المادة التى وقفت عليها.

من المعروف أن شهرة المهلهل شاعراً فارسا قد ارتبطت بحرب البسوس التى استمرت أربعين عاما وانتهت فى العقد الأخير من القرن الخامس فيما أرجح، أو العقد الأول من القرن السادس[٢٣] خلال حكم الحارث ملك كندة الذى توسط لإنهاء هذه الحرب الطحون[٢٤]. وباستثناء أشعار قليلة للمهلهل فإن عُظْم شعره نظمه فى حرب البسوس، ولم أجد إلا قصيدة واحدة من أحد عشر بيتا قالها فى وقعة السُلاّن التى حدثت قبل حرب البسوس، كما سيأتى بيانه بعد قليل. فإن صح أن المهلهل ذاعت شهرته بوقوع حرب البسوس، فإن بعض معاصريه أمثال الفِنْد الزِّمّانى والحارث بن عباد وسعد بن مالك والمرقش الأكبر وابن أخيه المرقش الأصغر يستحقون جميعا أن يشاركوه هذه المزية التى اختصه بها أكثر العلماء. وأكتفى هنا بالنظر فى شعر ثلاثة من هؤلاء الشعراء مثبتا أنهم أيضا قد قصدوا القصائد، وأن قصائدهم قد استكملت الشكل المعروف بأقسامه المختلفة من أطلال ونسيب.

١ - الفِنْد الزِّمّانى:

احتفظ لنا ابن ميمون بثلاث قصائد للفنْد[٢٥] أولها رائية فى ثمانية وسبعين بيتا، وسأخصها بشئ من التفصيل بعد قليل، والثانية نونية عدتها عشرون بيتا، ومطلعها:

أقيدوا القوم، إن الظلـ
م لا يرضاه ديّان

وقد اختار منها أبو تمام (الحماسية رقم: ٢ فى الجزء الأول) فى حماسته تسعة أبيات. والثالثة لامية عدد أبياتها واحد وعشرون بيتا ومطلعها:

أيا تَمْلكُ يا تَمْلُ
ذات الدَّلِّ والشكْلِ

فواضح أن هذه قصائد لا مقطوعات. وأكاد أجزم أن قصائد أشباهها فقدت. وأكتفى هنا بالنظر إلى الرائية، وهى تبدأ بذكر الأطلال، يستهلها بقوله:

أشجاك الرَّبعُ أقْوَى والديار
وبكاء المرء للربع خَسار

ولكنه لا يطيل الوقوف، ويزجر نفسه على بكائه، فلن يرد البكاء شيئا. وخليق به وهو الفارس المجرب أن يكون صبورا غير جزوع، فلا يصدر عنه ما يشين رجولته، فيقول فى البيت الخامس مخاطبا نفسه:

أيها الباكى على ما فاته
اقصرن عنك، فبعض القول عار

ويستمر فى حديثه مع نفسه مبينا لها أن الجزع لا يجدى عنها نقيرا، كما لم يجد قومه شيئا بعد ما حلّ بهم ما حل من انكسار وقهر فى معترك القتال، فيقول مخاطبا قومه:

فاجزعوا للأمر أو لا تجزعوا
قد تداعى السقف وانهار الجدار

ويصف فى عشرة أبيات كيف كان هذا التداعى وذاك الانهيار. ويختلط حديثه عن قومه بحديثه عن نفسه، فكلاهما جزع لما حاق به، وكل منهما عانى مرارة الهزيمة فى ساحة الوغى وباحة الهوى سواء بسواء. ولكن ما باله ينساق مرة أخرى إلى هذا الحديث، فما فات لا يعيده تذكره، ولن يغير كنهه وحقيقته. آن له، إذن، أن يجابه الواقع:

إنما ذكرك شيئا قد مضى
حُلم، لو يرجع الحلم ادّكار

وإذا كان قومه - وهو فيهم وسط - قد هزموا مرة، فقد كانت لهم أيام أذلوا فيها أعداءهم القحطانيين، وظهروا عليهم، فيبدأ ببنى تيمة معيِّرًا:

يا بنى تيمة قد عاينتم
وقعة منا لها نار شنار

ويتبجح بما أنزلوه بهم، وما أذاقوا قحطان من قهر ومذلة، وأنى لهم بنزار وهى نار تحرق ما تلقاه، ونور للناس به يستضاء:

جمع الله نزارًا فنفى
بهم الناسَ جميعا فاستناروا
إنما الناس ظلام دونهم
فإذا ما أظلم الناس أناروا
نحن للناس سراج ساطع
وضرام يتقى منه الشَّرارُ

وإذا كانت نزار كذلك، فهى حَرِيَّة أن تسود وأن يرضخ لها سادة الناس، فيذكر قحطان بما نالته نزار منها فى غير وقعة:

إذ قتلْنا بالحمى ساداتكمْ
وأجرناكمْ، وفى ذاك اعتبارُ

ثم يوم خَزازى:

كم قتلنا بخزازى منكمُ
وأسرنْا بعد ما حلَّ الحِرار

ثم انتصارهم على مذحج:

ونجت منا فراراً مَذْحج
هَربا، والخَيل يعلوها الغبارُ

وبعد كل هذه الدوائر التى دارت على قحطان، كان لابد لقحطان كلها أن يعلوها قتام الذل، وتشينها معرَّة الإسار فتنقاد خاضعة فى صغار:

أسمَحتْ قحطانُ فى ارْساننا
خَبَبَ الأعيارِ تَتلوها الصِّغَارُ

ويطيل فى وصف ما عانته قحطان من حرّ القتال، وما أنزلته بها نزار من ذل وهوان، وينذر قحطان بأن لا سبيل لها على نزار:

لن تنالوا من نزار مثلما
منكُم نالت من الذل نزارُ

ويبين لهم سبب عجزهم عن نيل مثل هذا المرام، فيعدد مفاخر نزار، ويسهب فى بيان فضلها وأمجادها وعراقة نسبها وحميد حسبها:

نحن أولادُ مَعَدٍّ فى الحَصى
ولنا من هاجر المجد الكُبار
وَلَدَنْ أكرمَ مَن شُدَّ به
عُقَدُ الحُبْوة قدْمًا والإزار
إن إسماعيلَ مَن يَفْخَرْ به
يُلْفُ فى دارٍ بها حلَّ الفخار

ثم يختم هذا الفخر بوعيد لا لقحطان فقط، بل لكل من يتوثب لقتال قومه:

أيما قوم حللْنا بهمْ
للرَّدى فيهمْ رواح وابتكار

من هذا العرض يتضح أن قصيدة الفنْد، إلى جانب طولها الذى لا تدانيه كثير من القصائدَ الجاهلية التى وصلتنا، تبين عن مرحلة متقدمة فى تطور القصيدة العربية فى شكلها المعروف، فهى ـ وإن خلت من النسيب والرحلة ـ قد بدأت بالأطلال، ولعل موضوع القصيدة أملى على الشاعر أن يتجاوزهما، كما نجد فى معلقة عمرو بن كلثوم مثلا؛ حيث بدأ بذكر الخمر التى تلائم روح الفخر الذى يسود القصيدة، وأعقب الخمر بالغزل، لا بالنسيب.

٢- الحارث بن عُباد:

الحارث فارس بكر غير مدافع، استعظم قتل كليب أخى المهلهل فى ناقة، وأبى أن يدخل فى أمر تخطأ فيه قومه. ثم وقع حادث جلل: قتل المهلهل بجيراً، ابن الحارث بن عباد. فقال الحارث: نعم القتيل قتيلا أصلح بين ابنى وائل. فقد ظن أن المهلهل أدرك به ثأر أخيه وجعله كفؤًا له، فقال للحارث قومه: بل قال مهلهل إنه قتله بشِسْع نعل كُلَيْب. فغضب الحارث ودعا بفرسه وقاد قومه. احتفظ لنا كتاب بكر وتغلب بعدة أشعار للحارث منها ثمانية أقلها طولا تقع فى ثمانية عشر بيتا، وها هى مطالعها حسب ورودها فى الكتاب:

ص: ٦١ – ٦٤، مائة بيت:

١ ـ كل شئ مصيره لزوال
غير ربى وصالح الأعمال

ص: ٦٩ – ٧٠، ستة وعشرون بيتا:

٢ ـ كانا غدوةً وبنى أبينا
غداةَ الخيلِ تُقْرَعُ بالذُّكورِ

ص: ٧٢، ثمانية عشر بيتا:

٣ ـ عفت أطلالُ مَيَّةَ بالجَفير
إلى الأجْياد منه فجو بيرِ

ص: ٧٤ – ٧٥، ستة وعشرون بيتا:

٤ ـ حيِّ المنازلَ اقفرت بسَهام
وعفَتْ معالمُها بجنْب ثُرامِ

ص: ٧٦ – ٧٨، ثمانية وأربعون بيتا:

٥ ـ بانت سعادُ وما أوفتْكَ ما تعدُ
فأنت فى إثرها حرّانَ معتمدُ

ص: ٨٠ – ٨٢، خمسون بيتا:

٦ ـ هل عرفتَ الغداةَ رَسمًا محيلا
دارِسا بعدْ أهْله ماهولا

ص: ٩٦ – ٩٧، أربعة وعشرون بيتا:

٧ ـ عفا منزلٌ بين اللوى والحوابس
لمَرِّ الليالى والرياحِ الروامس

ص: ١٠٩– ١١٠، واحد وعشرون بيتا:

٨ ـ ونهيتُ جَسَّاسا لقاءَ كليبهم
خوفَ الذى قد كان من حدثان

والقصيدة الأولى (حسب ترقيمى هنا) على طولها تخلو من المقدمة الطللية والنسيب، وذلك فيما أرجح لأنها خرجت مخرج الرثاء. وقصائد الرثاء – إلا نادرا – تخلو من هذه المقدمات. استهل الحارث القصيدة برثاء بجير، ثم ختم الرثاء بإيعاد تغلب:

ثكلَتْنى عن المنية امى
وأتاها نَعْى عمىِّ وخالى
إن لم أشف النفوس من تغلب الغُد
ر بيوم يذل برك الجمال
يا لقومى فشمروا ثم جدّوا
وخذوا حذركم ليوم القتالِ

وتمضى القصيدة على هذا النمط فى تحضيض قومه وتهديد تغلب، ويتكرر فيها هذا الصدر المشهور أربعا وأربعين مرة:

* قرِّباً مَرْبطِ النعامة منِّى *

وواضح من مطالع القصائد الأخرى – ماعدا الثانية والأخيرة ـ أنها تبدأ بذكر الأطلال حينا والنسيب حينا آخر. وبعض هذه القصائد قالها ابتداء، وأجابه المهلهل عنها، مثل اللاميه (رقم: ١ هنا)، ثم الرائية (رقم: ٢ هنا)، أجابه عنها المهلهل برائيته المشهورة التى مطلعها:

اليْلَتنا بذى حُسُم انيرى
إذا أنت انقضيتِ فلا تُحورى

وأجابه الحارث عنها ثانية برائيته (رقم: ٣ هنا). وفى هذه الرائية استهل الحارث بالأطلال فى بيتين، ثم أعقب ذلك بالنسيب فى بيتين، ثم انتقل فجأة إلى ذكر الحرب والفخر بقومه وانتصارهم على تغلب، فيقول:

فسائلْ إن عرضتَ ـ بني زُهَيرْ
ورهْطَ بنى أمامة والغَوير

وفى القصيدة الميمية (رقم: ٤ هنا) يذكر الأطلال فى مفتتحها وطمس الرياح لها فى بيتين ونصف متخلصا بذلك إلى النسيب، فيقول فى البيت الثالث:

اقْوَتْ، وقد كانت تحلُّ بَجوِّها
حُورُ المدامعِ من ظباء الشامِ

وينتقل فجأة فى البيت السابع إلى ذكر وقائع بكر مع تغلب وكندة، وكيف فلَّت بكرٌ جموعهما، ويتوعد تغلب، ويؤكد أنه لن ينسى قتل بُجَيْر، وأنها حرب لا هوادة فيها.

وفى القصيدة الدالية (رقم: ٥ هنا) لا ذكر للأطلال فيها، وإنما يبدأها بالنسيب، ثم يصف جمال صاحبته وتمكنها من قلبه فى عشرة أبيات، ثم ينتقل دون تمهيد فى البيت الحادى عشر إلى وقائع بكر مع تغلب فيقول:

سل حيَّ تغلب عن بكر ووقعتهم
بالحِنْو إذ خسروا جهراً وما رشدوا

ويفخر بقبائل بنى بكر فى سبعة وثلاثين بيتا.

ويبدأ القصيدة اللامية (رقم: ٦ هنا) بالكلام على الطلل ويصف بلاه وأثافيّه السُفْع، وما فيه من وحش وطير، وجر الرامسات ذيولها من شمال وجنوب وصبا، ويستغرق ذلك أربعة عشر بيتا، ثم يبدأ البيت الخامس عشر ذكر صاحبته التى عمرت تلك الدار يوما، يقول:

يوم أبدت لنا سلامة وجها
مستنيرا وعارضا مصقولا

ويصف ملاحتها وشبابها فى عشرة أبيات، ثم ينتقل فجأة إلى ذكر تغلب وحروب قومه معها، فيقول فى البيت السادس والعشرين:

سَفِهت تغلبُ غداةَ تمنَّتْ
حرب بكْرِ فقُتِّلوا تقتيلا

وتبدأ السينية (رقم: ٧ هنا) بذكر الطلل العافى وما بقى فيه من آثار من رحلوا: وتد وأثافىّ ونؤى. ويصف ما فعلته الرياح والأمطار ببقايا الديار، فيقف يسألها:

وقفت بها أرجو الجواب، فلم تجب
وكيف جواب الدارسات الخوارسِ

وفى الأبيات الثلاثة التالية يتذكر من كان يحل بها من أمثال الدُّمَى، وفى البيت الحادى عشر ينتقل إلى مخاطبة بنى تغلب فيقول:

بنى تغلب لم تنصفونا بقتلكم
بجيرا ولما تُقتلوا فى المجالسِ

ويتهددهم ويتوعدهم، ويذكرهم بظهور بكر عليهم كلما التقوا.

٣- المرقش الأكبر:

إذا كان شعر المهلهل والحارث بن عباد، إلا قليلا، متصلا بحرب البسوس، فإن شعر المرقش الأكبر يكاد يكون مناصفة بين وقائعها وألم الحب الممضّ، فقد كان المرقش من الشعراء الذين أطلق عليهم فى العصر الجاهلى اسم «المتيّمون». أفنى المتيمون حياتهم فى الجاهلية كما قضاها «العذريون» فى الإسلام فى البكاء على صواحبهم اللواتى لم يتح لهم القدر الزواج منهن، أو أتاح ثم غدر. ففاض شعرهم حسرة وأنينا، كما بين أستاذنا المرحوم يوسف خليف فى كتيب قيم. ولا يقدح فى صحة شعر هؤلاء وهؤلاء مانحلوه، وما صاحبه من أخبار لا تكاد النفس تصدق بها. فشعر المرقش فى صاحبته أسماء كشعره فى حرب البسوس سواء بسواء صحة وصدقا. أثبت المفضل فى اختياره اثنتى عشرة قصيدة ومقطوعة للمرقش الأكبر، رقم: ٤٥ (سبعة أبيات)، رقم: ٤٦ (اثنا عشر بيتا)، رقم: ٤٧ (عشرون بيتا)، رقم: ٤٨ (أحد عشر بيتا)، رقم: ٤٩ (اثنا عشر بيتا)، رقم: ٥٠ (سبعة عشر بيتا)، رقم: ٥١ (أحد عشر بيتا)، رقم: ٥٢ (ثمانية أبيات)، رقم: ٥٣ (ثلاثة أبيات)، رقم: ٥٤ (ثمانية أبيات). ولا شك عندى أن بعض هذه المقطوعات أجزاء من قصائد لم تصل إلينا كاملة. وعندى أيضا أن بعض القصائد فقدت منها أقسام أو أبيات من أقسامها المختلفة، مثل المفضلية رقم: ٤٩، ولسهولة المراجعة أثبتها هنا:

١ ـ هل تعرف الدار عفا رسمها
إلا الأثافىّ ومبنى الخِيَمْ
٢ ـ أعرفها دارا لأسماء فالـ
دمع على الخدين سح سَجَمْ
٣ ـ أمست خلاء بعد سكانها
مقفرة ما إن بها من إرم
٤ ـ إلا من العين ترعى بها
كالفارسيِّين مشوا فى الكمم
٥ ـ بعد جميع قد أراهم بها
لهم قباب وعليهم نعم
٦ ـ فهل تسلى حبها بازل
ما إن تسلى حبها من أمَمَ
٧ ـ عرفاء كالفحل جُمالية
ذات هباب لا تشكى السأم
٨ ـ لم تقرأ القيظ جنينا ولا
أصرها تحمل بَهْم النَّعم
٩ ـ بل غربت فى الشول حتى نوت
وسوغت ذا حُبُك كالإرم
١٠ ـ تعدو إذا حرك مجدافها
عدو رباع مفرد كالزلم
١١ ـ كأنه نصع يمان وبالـ
أكرع تخنيف كلون الحُمم
١٢ ـ بات بغيب معشب نبته
مختلط حربثه بالينم

وواضح أن تشبيه الناقة – الذى بدأ فى عجز البيت العاشر – بالثور الوحشى ينتهى فجأة بعد بيتين ونصف وأنا مقتنع بيقين أن هذا القسم مفقود، وأن أقساما أخرى تليه قد فقدت أيضا. ولو انتهت إلينا القصيدة كاملة لرأينا أنها تفوق قصائد المهلهل لغة وأسلوبا وإحكام قصيد. ومن حسن الحظ أن ميمية المرقش الأكبر الأخرى قد وصلتنا كاملة، وأنا مضطر كل الاضطرار أن آتى بنصفها هنا حتى يتابع القارئ تحليلها وحتى تسهل المقارنة بين مقدمتها ومقدمة الميمية التى أثبتها آنفا:

١ ـ هل بالديار أن تجيب صمم
لو كان رسم ناطقا كَلِمْ
٢ ـ الدار قفر والرسوم كما
رقش فى ظهر الأديم قَلَمْ
٣ ـ ديار أسماء التى تبلت
قلبى، فعينى ماؤها يَسْجُمْ
٤ ـ أضحت خلاء نبتها ثئد
نور فيها زهوه فاعتم
٥ ـ بل هل شجتك الظعن باكرة
كأنهن النخل من مَلْهَمْ
٦ ـ النشر مسك، والوجوه دنا
نير، وأطراف البنان عنم
٧ ـ لم يشج قلبى ملحوادث إ
لا صاحبى المتروك فى تغلم
٨ ـ ثعلب ضراب القوانس بالـ
سيف وهادى القوم إذ أظلم
٩ ـ فاذهب فدى لك ابن عمك، لا
يخلد إلا شابة وأدم
١٠ ـ لو كان حى ناجيا لنجا
من يومه المزلم الأعصم
١١ ـ فى باذخات من عماية أو
يرفعه دون السماء خيم
١٢ ـ من دونه بيض الأنوف وفو
قه طويل المنكبين أشم
١٣ ـ يرقاه حيث شاء منه، وإ
ما تنسه منية يهرم
١٤ ـ فغاله ريب الحوادث حـ
تى زل عن أرياده فحطم
١٥ ـ ليس على طول الحياة ندم
ومن وراء المرء ما يعلم
١٦ ـ يهلك والد ، ويخلف مو
لود ، وكل ذى أب يَيْتَمْ
١٧ ـ والوالدات يستفدن غنى
ثم على المقدار من يعقم
١٨ ـ ما ذنبنا فى أن غزا ملك
من آل جفنة حازم مرغم

تبدأ الميمية الأولى «الخيم» بالحديث عن الأطلال، فلأْيا ما يتبين الشاعر من الدار العافية أثافيها والأماكن التى كانت تقوم فيها خيامها، دار كانت تحل بها أسماء فأضحت وحشا يبابا. ويختلط الماضى البعيد الحى بالحاضر الماثل المُمْحل فى ذهن الشاعر فدمعه على الخدين سحٌ سَجم حزنا وألما وصبابة. ويجيل النظر حوله فلا يرى إلا الوحش ترعى ما كان يوما عامرا. ولكن كيف السبيل إلى السلو من ألم الفراق ولذعة الحب ووحشة المكان! هذى ناقته القوية كفيلة أن تحمله بعيدا عله يتسلى حب أسماء، بذلك يتخلص الشاعر من «الأطلال والنسيب» إلى «الرحلة» فى يسر وسهولة. تبدأ الميمية الثانية «كلم» أيضا بالأطلال والنسيب ولكن بطريقة مغايرة لما فى الميمية الأولى «خيم»، فالشاعر هنا عارف للديار متبين لها. يسائلها فلا تجيب، أبها صمم؟ كلا، لو كانت الديار تتكلم لحكت له هذه الدار عن أسماء وأهلها الظاعنين. وإذا كان الشاعر فى الميمية الأولى رأى أن ما بقى من آثار الديار لا يعدو الأثافى ومبنى الخيام، ففى هذه الميمية لم يبق من آثار الديار سوى شئ يسير كخط القلم. وإذا لم يكن فى الميمية الأولى من معالم الحياة إلا بقر الوحش التى تستريد المكان، فمعالمها فى الميمية الثانية نبت جميم ندىّ، ونور ناضر حسن و زها. ولكن هل هذا ما أشجاه؟ أم أشجاه تذكر النساء بكرة راحلات؟ فهذا تخلص لطيف فى البيت الخامس إلى وصف «الرحلة»، ولكنها ليست رحلته هو كما فى الميمية الأولى، وإنما رحلة النساء ـ يستعيدها بعد حين، كما فى معلقة زهير ـ واصفا جمالهن فى البيت السادس. ولكن هل هذا ما أشجاه حقا؟ لا، إن الذى أهمه هو مقتل ابن عمه، فهذا تخلص ثان لطيف جدا ليبدأ رثاء ابن عمه[٢٦] ثعلبة بن عوف الذى قتله المهلهل فى إحدى وقائع حرب البسوس ـ وينتهى الرثاء بالبيت السابع عشر. هذا الرزء الفادح يذكره بخطب جليل نزل به وبقومه، فقد أوقع بهم ملك من ملوك آل جفنة. وهذا مرة ثالثة تخلص فى غاية الحسن من موضوع إلى آخر مشابه له، فإن حزنه وكمده لمقتل ابن عمه لا يقل عن ألمه وهمه لغزو ابن أخته قومه. ويستمر هذا القسم حتى تنتهى القصيدة بالبيت الخامس والثلاثين. من هذا العرض لكلتا القصيدتين يحق لنا أن نستظهر ما يلى:

١ – إن المرقش الأكبر – وهو معاصر للمهلهل – لم يقصد القصائد فقط، بل استقر فى شعره شكل القصيدة بأقسامها المختلفة من أطلال ونسيب ورحلة، كما نقله ابن قتيبة وعرفه وحاول تفسيره [٢٧]. وبلغ المرقش فى ذلك مبلغا ليس لمهلهل منه نصيب كبير. والناظر فى شعر المهلهل فى (كتاب بكر وتغلب) أو فى ديوانه المجموع يرى صحة ذلك. وأنا أزعم أن المرقش الأكبر أحكم ذلك خيرا من معاصريه جميعا. فشعر الحارث بن عباد مثلا – وقد مر بنا منذ قليل – وإن احتوى على هذه الأقسام، لا يمهد كل قسم لتاليه، بل ينتقل فجأة دون تمهيد كما بينت.

٢ – اللغة فى شعر المرقش محكمة عالية، لا تقل بل أظن أنها تفوق لغة المهلهل رقة وسلاسة وفصاحة.

٣ – إن المرقش الأكبر – حسب الأشعار التى وصلتنا – سبق شعراء المعلقات فى الإتيان ببعض الصور والتشبيهات، مثل رود الوحش قفر الديار (عند زهير ولبيد)، ونضرة النبات وسؤال الديار الصم (عند لبيد)، وتشبيه ما بقى من رسم دارس بخط القلم فى جلد أو رق أو كتاب (عند امرئ القيس وغيره).

فإذا استقام لنا ما ذكرت، فهل كان المرقش الأكبر وبعض معاصريه أول من قصدوا القصائد وأحكموا شكلها المعروف؟ نقل ابن سلام احتجاج بعض العلماء لامرئ القيس بأنه «سبق العرب إلى أشياء ابتدعها واستحسنتها العرب، واتبعته فيها الشعراء : استيقاف صحبه والتبكاء فى الديار، ورقة النسيب...»[٢٨]، غير أنه كان قد أورد قبل ذلك هذا البيت لامرئ القيس:

عُوجا على الطلل المحيل لعلنا
نَبْكِى الديارَ كما بكىَ ابن حِذامِ

وعلق على ذلك بقوله «وهو رجل من طيء: لم نسمع شعره الذى بكى فيه، ولا شعرا غير هذا البيت الذى ذكره امرؤ القيس»[٢٩]. ويمدنا ابن قتيبة (– ٢٧٦) بأشياء قليلة عن ابن حذام، فنقل عن ابن الكلبى (– ٢٠٤) أن «أول من بكى فى الديار امرؤ القيس بن حارثة بن الحُمام بن معاوية وإياه عنَى امرؤ القيس بقوله:

يا صاحبىّ قفا النَّواعجَ ساعة
نبكى الديارَ كما بكَى ابن حمامِ»[٣٠]

ثم نقل عن أبى عبيدة معمر بن المثنى (– ٢١٤): «هو ابن خذام»، ثم أنشد البيت الذى أورده ابن سلام، ثم زاد، وهو القائل:

كأنى غداةَ البيْن يوم تحمَّلوا
لَدَى سَمُرات الحىِّ ناقفُ حنظل

يعنى أن ابن خذام هو قائل هذا البيت، وهو البيت الرابع من معلقة امرئ القيس. ويؤكد ابن حزم (– ٤٧٦) هذا الكلام مضيفا إليه. ففى معرض حديثه عن كنانة بن بكر قال:

«ومنهم بنو عدىّ، وزهير، وعلّيم بنى جناب بن هُبل بن عبد الله بن كنانة بن بكر المذكورين، وهم بطون ضخمة، وعمهم عبيدة ابن هبل، بطن. من ولده: امرؤ القيس بن الحمام بن مالك ابن عبيدة بن هبل، وهو ابن حمام الشاعر القديم الذى يقول فيه بعض الناس: ابن خذام... وهو الذى قال فيه امرؤ القيس:

نبكى الديار كما بكى ابن حُمام

قال هشام بن السائب: فأعراب كلب إذا سئلوا بماذا بكى ابن حمام الديار؟ أنشدوا خمسة أبيات متصلة من أول:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل. ويقولون إن بقيتها لامرئ القيس»[٣١].

ثم نرى أبا حاتم السجستانى (– ٢٥٦) يترجم لابن حذام ترجمة مختصرة يذكر فيها نسبه وثلاثة أبيات رائية[٣٢]. وبعد قرن تقريبا يورد الآمدى (– ٣٧٠) ترجمة لابن حذام ويذكر نسبه كما ذكره ابن حزم بعدُ: امرؤ القيس

ابن حُمام بن مالك بن عبيدة بن هُبَل بن عبد الله بن كنانة ابن بكر. ثم ينقل عن بعض الرواة أن امرأ القيس هذا هو الذى أشار إليه امرؤ القيس صاحب المعلقة فى بيته الذى مر بنا آنفا، وأنه يسمّى أيضًا ابن خذام. ثم يذكر له ثلاثة أبيات على روى الراء، وهى مختلفة عن الأبيات الرائية التى أوردها أبو حاتم السجستانى، ولكن كلتا القطعتين على الوزن والرويّ نفسيهما مما يشعر أنهما من قصيدة واحدة. ويبدو أن ما أورده الآمدى هو مطلع هذه القصيدة، وأول هذه الأبيات هو:

لآل هند بجنبى نَفْنَف دارُ
لَم يَمْحُ جِدّتها ريحٌ وأمطارُ

ثم يقول عن هذه الأبيات: «وهى أبيات فى أشعار كلب، والذى أدركه الرواة من شعره قليل جدا»[٣٣]، أى من شعر ابن حذام. مما تقدم نرى أن ما فات ابن سلام استدركه آخرون، كل يضيف شيئًا يسيراً إلى كلام من سبقه. فابن حذام شخصية حقيقية، وليس شيئًا وهمياً اخترعته الرواة. فإن صح ذلك ـ وهو صحيح إن شاء الله ـ فالسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو: متى عاش ابن حذام؟

نحن نعرف على وجه اليقين أنه عاش قبل زمن امرئ القيس. وقد مر بنا أن المهلهل والمرقش الأكبر والحارث بن عباد والفنْد الزِّمّانى كلهم قد كتب القصيد، وأن المرقش الأكبر خاصة قد أحكم المقدمة الطللية، وإن كانوا كلهم قد ذكروا تبكاء الديار. ولكن امرأ القيس صاحب المعلقة لا يذكر أيّا منهم، وإنما يخص ابن حذام دونهم بهذه المزية. فإن قلنا إن ابن حذام سابق عليهم فى الزمان لم نبعد. ويقوّى هذا الفرض أن أبا حاتم السجستانى ذكره فى المعمرين وأنه عاش مائة سنة. وظنى أن ابن حذام كان شاعرا له ذكر وخطر قبل أن تكتمل للمرقش أو معاصريه الأداة، بل لعله كان كذلك قبل ميلادهم.

تعيننا الحروب التى وقعت بين القحطانيين والعدنانيين قبل حرب البسوس على تكشُّف جوانب عنصر الزمان وأسبقية الشعراء. وأنا أظن ظنا أن حرب البسوس انتهت خلال السنوات الأولى من القرن السادس، وربما أوله أى سنة ٥٠٠م، وليس عام ٥٢٥ أو بعده كما يقترح بعض الباحثين[٣٤]. ومات المهلهل فى الأسر قبل انتهائها. ونحن نعلم أن حرب البسوس استمرت أربعين عاما، فيكون ابتداؤها سنة ٤٦٠ أو ٤٧٠ على أكثر تقدير. ونحن نعلم أيضًا أن المهلهل كان قائد تغلب ورئيسها منذ اليوم الأول لوقائع حرب البسوس. ولا يعقل أن يرأس غلام حدث قبيلة قوية مثل تغلب وهى مقدمة على حرب ضروس ضد قبيلة لا تقل عنها قوة، وهى شقيقتها بكر. لا جرم أنه كان آنذاك رجلا مكتمل الرجولة، ومحاربا مشهوداً له بالحكمة والتجربة. يؤيد ذلك من بعض الوجوه أن المهلهل شارك فى معارك قومه ضد القحطانيين التى هاجت قبل حرب البسوس كما ذكرت فيما سبق. فبعد انتصار بغيض على قبيلة صداء اليمنية[٣٥] ازدادت بغيض قوة وثراء، وعتت وبغت، وتطلعت إلى بناء حرم مثل حرم مكة لايقتل صيده ولايهاج عائذه، ففعلت. فبلغ فعلهم زهير بن جناب، وهو يومئذ سيّد بنى كلب، فأغار عليهم فى موضع يقال له بسّ، فظفر بهم وهدم حرمهم[٣٦]. فتعبأت العدنانية للأخذ بثأرها وطرد اليمانية من بلادها وقادها عامر بن الظَّرب، فأوقع باليمانيين وقعة منكرة عند البيداء[٣٧]. ولم أجد ذكرا للمهلهل أو أخيه كليب فى هذه الوقعة. فاستطار زهير بن جناب بسيفه وجمع قومه وأغار على بكر وتغلب عند ماء يقال له الحُبيّ وأسر المهلهل وأخاه كليبا[٣٨]. ولكن القبائل العدنانية استطاعت أن تثأر لنفسها برئاسة ربيعة بن الحارث فى وقعة السُّلاَن. وهنا بدأت العدنانية والقحطانية تعدان لمعركة فاصلة، فتجمعت قبائل معدّ كلها تحت لواء كليب بن ربيعة ـ أخى المهلهل ـ وانتصرت انتصاراً حاسما على القبائل اليمنية[٣٩].

وليس من السهل تحديد الزمن الذى وقعت فيه هذه الحروب بين عدنان وقحطان، ولكنها ـ مع ذلك ـ تسعفنا فى تحديد زمن المهلهل، وذلك بدوره يعين على تحديد زمن ابن حذام. رأينا من العرض السريع لهذه الحروب أن وقائعها الأولى تخلو من ذكر المهلهل، مما يبيح لنا أن نستظهر أنه كان صغير السن خلالها. فإذا سلمنا أن حرب البسوس قد انتهت حوالى سنة ٥٠٠م أو سنة ٥١٠م على أكثر تقدير. وأنها قد بدأت عام ٥٦٠ أو ٥٧٠ على أكثر تقدير أيضاً. وأن

حروب عدنان وقحطان كانت قبلها بزمن لا ندريه على وجه التحقيق . وأن المهلهل كان يافعا خلال وقائعها الأولى. أقول إذا سلمنا بذلك حق لنا أن نستظهر أن ميلاد المهلهل كان حوالى عام ٤٣٥ أو ٤٤٠ . وهذا التحديد يعين على معرفة زمن ابن حذام على وجه التقريب. اقترحت فيما سبق أن ابن حذام أسبق زمنا من المهلهل ومعاصريه، وإلا لما أفرده امرؤ القيس بالذكر، فهم جميعا قد قالوا القصيد، وهم جميعا ذكروا الأطلال والنسيب، ثم نقلت عن أبى حاتم أن ابن حذام كان من المعمرين، عاش مائة سنة أو أكثر. ويذكر الآمدى أن ابن حذام كان مع زهير بن جناب فى غاراته على بكر وتغلب[٤٠]، ويؤيد ذلك ابن رشيق عن أبى عبيدة معمر ابن المثنى[٤١]، أى أنه شارك فى الحروب التى كانت بين عدنان وقحطان قبل نشوب حرب البسوس. كل ذلك مجتمعا يشير إلى أن مولد ابن حذام كان فى العقد الثانى من القرن الخامس على وجه التقريب. فهل لنا أن نقول ـ إذن ـ إن القصيدة اتخذت شكلها المعروف فى أوائل القرن الخامس الميلادى؟ أنا أزعم لذلك تاريخا أقدم. وسبيلنا فى ذلك أن ننظر فى سيرة زهير بن جناب الذى ورد ذكره منذ قليل. قال ابن سلام عن زهير بن جناب: «كان قديما، شريف الولد، طال عمره»[٤٢]. وقال عنه ابن قتيبة «وهو جاهلى قديم... وهو من المعمّرين»[٤٣]. وقد أثبت ـ فيما أرجو ـ آنفاً أن ابن حذام أسنّ من المهلهل، واقترحت العقد الثانى من القرن الخامس زمن ميلاده. ثم نقلت عن الآمدى أن ابن حذام كان مع زهير بن جناب فى غاراته على العدنانيين. وأفاد ابن رشيق أن زهير بن جناب كان عم ابن حذام[٤٤]، ونقل ذلك البغدادى[٤٥]، وهو قول صحيح عن مطلق عمومته، فقد نقلت قبل ذلك نسب ابن حذام عن جمهرة أنساب العرب، وهو: امرؤ القيس بن حمام بن مالك بن عبيدة بن هبل. ونسب زهير بن جناب كما أورده أبو الفرج فى ترجمته هو: زهير بن جناب بن هبل[٤٦]. ويتضح من كلا النَّسَبَيْن أن زهير بن جناب ليس عم ابن حذام مباشرة، وإنما هو ابن عم جده مالك. وهذا يعنى أن زهير بن جناب كان أسنّ من ابن ابن ابن عمه بما يقرب من ثلاثين عاما، إن لم تزد. فإذا قبلنا ما اقترحته من قبل من أن ابن حذام ولد حوالى عام ٤٢٠، فإن عام ٣٩٠ ـ أو قبل ذلك بقليل ـ يبدو وقتا مقبولا لميلاد زهير بن جناب. ويستشف مما ذكره أبو الفرج فى ترجمته أن ميلاد زهير أسبق مما اقترحته ههنا. قال: «قال أبو عمرو الشيبانى: كان أبرهة حين طلع نجدا أتاه زهير بن جناب، فأكرمه أبرهة وفضله على من أتاه من العرب». وأبرهة المذكور هنا (٣٤٠ ـ ٣٧٥) غير أبرهة صاحب الفيل[٤٧]. وذكر حمزة الأصفهانى أن أبرهة الأول كان معاصرا لملك الفرس سابور الثانى (٣١٠ ـ ٣٨٠)[٤٨]. وإذا أخذنا برواية أبى الفرج عن أبى عمرو الشيبانى فلابد أن زهير بن جناب كان آنذاك فى تمام الرجولة وذكاء السّن حتى يفضله أبرهة «على من أتاه من العرب». فإذا قدرنا أنه كان فى الخامسة والعشرين من العمر، وإذا افترضنا أنه قابل أبرهة فى آخر سنة من عمره أو حكمه وهى سنة ٣٧٥م كان ميلاد زهير عام ٣٥٠م، وهذا أمر مستبعد، لأنه يكون قد جاوز الثمانين خلال حروب عدنان وقحطان. ولعل منشأ هذه الرواية يكمن فى أن بعض العلماء اعتقدوا أن زهير بن جناب عاش خمسين ومائتى سنة[٤٩]، وبالغ بعضهم فى الإفراط فقال أربعمائة وخمسين سنة[٥٠]. الذى نطمئن إليه أنه عمر طويلا حتى ناهز المائة، كما مر بنا، وكما يدل عليه شعره، كما سنرى. وليس من المعقول أن يكون «قائد قومه فى حروبهم» ـ كما يصفه أبو الفرج ـ شيخا لا فضل فيه للحرب. ولو ذكرت لنا المصادر أن قومه أخرجوه معهم فى هذه السن العالية تيمنا به ـ كما نرى فى أخبار دريد بن الصِّمّة وغيره ـ لقبلنا ذلك. ولكن ترجمته تحدثنا عن شجاعته وظفره، وقيادته قومه وسيادته.

يعالج شعر زهير موضوعين متمايزين: حروبه التى قاد فيها قومه ضد العدنانيين، وشكواه المريرة من كبر السن، وما جرّه من هرم وضعف وسقام، وفَقْد هيبة وسلطان. وسأتحدث عن هذين الموضوعين فى إيجاز.

١ ـ شعر الحرب:

شعر زهير ـ الذى نظمه عقب انتصاره على بغيض وهدم حرمهم، وشعره الذى قاله عقب سحقه بكرا وتغلب وأسره المهلهل وأخاه كليبا ـ مرآة مجلوة نرى فيها وقائع هذه الحروب كما حفظتها لنا كتب الأدب والتاريخ، مما يدل

دلالة قاطعة على صحة هذا الشعر. وأكتفى بمثال من شعره فى بغيض، وآخر من شعره فى بكر وتغلب. أورد أبو الفرج أربعة عشر بيتا قالها زهير بعد ظفره ببغيض، وهم من غطفان، هى:

١ ـ ولم تصبرْ لنا غَطَفَان لما
تلاقيْنا وأُحْرِزَت النساءُ
٢ ـ فلولا الفضلُ منا ما رجعتمْ
إلى عذراء شيمتها الحياء
٣ ـ وكم غادرتمُ بطلا كَميا
لدى الهيجاء كان له غَناء
٤ ـ فدونكمُ ديونًا فاطلبوها
وأوتارا، ودونكم اللقاء
٥ ـ فإنا حيث لا نخفى عليكمْ
ليوثٌ حين يحتضر اللِّواء
٦ ـ فخلَّى بعدها غطفانُ بُسًّا
وما غطفانُ والأرضُ الفضاء
٧ ـ فقد أضحى لحيٍّ بنى جَناب
فضاءُ الأرضِ والماءُ الرُّواء
٨ ـ ويصدُق طعنُنا فى كل يوم
وعند الطعن يُختَبر اللقاءُ
٩ ـ نَفَيْنا نخوةَ الأعداء عنا
بأرماحٍ أسنَّتها ظِماء
١٠ ـ ولولا صبرُنا لَمَّا التقينا
لَقينا مثل ما لقيَتْ صداء
١١ ـ غداةَ تعرَّضُوا لبنى بَغيض
وصدْقُ الطعن للنَوْكَى شِفاء
١٢ ـ وقد هربت حِذارَ الموت قَيْنٌ
على آثار مَن ذهب العَفاءُ
١٣ ـ وقد كُنا رجوْنا أن يُمدّوا
فأخْلَفَنا من اخْوتنا الرَّجاءُ
١٤ ـ وألهَى القَيْنَ عن نصر المَوالى
حِلابُ النِّيبِ والمرعَى الضراءُ

وكما ذكرت قبل، هذه الأحداثُ فى هذه الأبيات مصداقٌ لوقائع الحروب فى كتب الأدب والتاريخ. فهى تذكر أن زهيرا بعد أن أوقع بغطفان «مَنَّ على غطفان وردَّ النساء»، كما ترى فى البيت الثانى هنا. وتحدد موضع القتال بمكان يقال له بُسّ، وهو مذكور فى البيت السادس هنا. وتنبئنا ـ كما مر بنا من قبل ـ أن بغيضا عدت على صُداء وأوجعت فيها ونكأت، كما ترى فى البيتين العاشر والحادى عشر. وتخبرنا أن زهيرا لما أجمع أمره على غزو غطفان استمدّ بنى القين بن جُشَم فأبوْا، فترى ذلك واضحًا فى الأبيات الثلاثة الأخيرة.

ومن الأشعار التى قالها فى بكر وتغلب وأَسْرِه المهلهلَ قولُه:

١ ـ تبًّا لتغلب أن تُساق نساؤُهم
سوقَ الإماء إلى المواسم عُطَّلا
٢ ـ لحقتْ أوائلُ خيلنا سَرَعَانَهمْ
حتى أسرنا على الحُبَيِّ مهلهلا
٣ ـ إنا، مهلهلُ، ما تطيش رماحُنا
أيامَ تَنْقُف فى يديْك الحنظلا
٤ ـ ولَّتْ حماتُك هاربين من الوَغَى
وبقيتَ فى حلَقِ الحديدِ مُكبَّلا

وفى قصيدة بائية يشير إلى أَسْر المهلهل وأخيه وبعض قومهما:

إذ أسرْنا مهلهلا وأخاه
وابنَ عمرو فى القدِّ وابن شهابِ

وقد مضى فى صدر هذا المقال كلامُ أبى العلاء المعرى فى رسالة الغفران عن المهلهل، وإتيانه بهذا البيت:

لما توقَّل فى الكُراع هَجينُهم
هَلْهَلْتُ أثأرُ مالكا أو صِنْبَلا

وسواء كان هذا البيت من نظم المهلهل أو نظم أخيه ـ كما ذكر أبو العلاء ـ فإن الذى يسترعى النظر هو أن هذا البيت على وزن وروى أبيات زهير ههنا. وواضح من بيت المهلهل أو أخيه أنه يعير زهيرا بهزيمته وأنه أدرك ثأر من قتلوا وأغلب ظنى أن هذا البيت من قصيدة كتبها المهلهل بعد وقعة السُّلان التى ثأرت تغلب فيها لنفسها لهزيمتها فى

معركة الحُبَيّ. وعندى أن قصيدة المهلهل نقيضة للامية زهير ابن جَناب التى أوردتها هنا، مما يزيد فى توثيق هذا الشعر. والناظر فى كتاب بكر وتغلب يجد أنه قلما ينظم شاعر قصيدة دون أن يجيبه عليها شاعر من القبيلة المعادية مناقضا.

٢ ـ شعر الشكوى من الهرم:

ذكرت قبلُ أن زهيراً عُمِّر عمرا طويلا «حتى ذهب عقله، وكان يخرج تائها لا يدرى أين يذهب، فتلحقه المرأة من أهله والصبى فترده»(٥١). وشعره ـ كبعض شعر لبيد ـ فيه تبرّم من طول الحياة وما أورثه من ضعف البدن وذهاب النظر:

ألا يالَقومى لا أرى النجمَ طالعاً
ولا الشمسَ إلا حاجبى بيمينى

وعزّ عليه ذهاب الهيبة، فقد كان زهير، كما يقول أبو الفرج: «إذا قال: ألا إن الحىّ ظاعن، ظعنت قُضاعَة. وإذا قال: ألا إن الحىّ مقيم، نزلوا وأقاموا»، فلما أسنّ لم يستمع إليه أحد، وخالفوه، فقالوا غير ما قال، ورأوا غير ما رأى:

أميرُ شِقاق، إن أُقِمْ لا يُقِم معى
ويرحَلْ، وإن أرحَلْ يُقِم ويُخالفُ

وقد أورد له ابن سلام قصيدة من شريف الشعر(٥٢) يذكر فيها ما بنى من مجد، وما خاض من قتال، ويذكر لهوَه وشربه وصيده، وقيامه فى المحافل خطيبا، ثم يختمها بهذين البيتين فى وصف ما آل إليه بعد أن كان من كان:

والموتُ خير للفتى
ولَيَهْلَكَنْ وبه بَقِيَهْ
من أن يُرى الشيخَ البَجا
لَ، قد يُهادَى بالعشيهْ

أما وقد نظرنا فى موضوعات شعر زهير فقد آن لنا أن ننظر فى الشكل الذى صيغ فيه هذا الشعر. ما بقى من شعر زهير قليل. وهذا القليل لم يصل إلينا قصائد كاملة، وإنما أجزاء من قصائد ضاع أكثرها. ولننظر الآن فى إحدى ما تبقّى من هذه القصائد والخبر الذى ارتبط بها. جاء فى الأغانى(٥٣): «قال أبو عمرو الشيبانى: كان الجُلاح بن عوف السُّحْمى قد وطّأ لزهير بن جناب وأنزله معه، فلم يزل فى جناحه حتى كثر ماله وولده. وكانت أخت زهير متزوجة فى بنى القين بن جَسْر، فجاء رسولها إلى زهير ومعه بُرد فيه صِرار رمل وشوكةُ قَتاد. فقال زهير لأصحابه: أتتكم شوكة شديدة وعدد كثير، فاحتملوا. فقال له الجلاح: أنحتمل لقول امرأة! والله لا نفعل. فأقام الجلاح وظعن زهير. وصبّحهم الجيش فقتل عامة قوم الجلاح وذهبوا بماله. ومضى زهير لوجهه حتى اجتمع مع عشيرته من بنى جَناب. وبلغ الجيش خبره فقصدوه، فحاربهم وثبت لهم وقتل رئيسا منهم، فانصرفوا عنه خائبين، فقال زهير:

١ ـ أمِن آل سلمى ذا الخيالُ المُؤَرِّقُ
وقد يَمِقُ الطيفَ الغريبَ المشوَّقُ
٢ ـ وأنى اهتدتْ سلمَى لوجْه محلّنا
وما دونها من مَهْمَه الأرض يَخْفِق
٣ ـ فلم ترَ إلا هاجعًا عند حُرَّة
علَى ظهرها كُورٌ عَتيقٌ ونُمْرُق
٤ ـ ولَمّا رأتنى والطليحَ تبسمتْ
كما انهَلّ أعلى عارضٍ يتألّقُ
٥ ـ فحُيِّيتِ عنا، زَوِّدينا تحيةً،
لعل بها العانى من الكَبْل يُطْلَقْ
٦ ـ فردّتْ سلاما ثم ولتْ بحاجة
ونحن لعَمْرى يابنة الخَيْر أشْوَقُ
٧ ـ فياطيبَ ما ريًّا، وياحُسْنَ منظر
لهوْتُ به لو أن رؤْياك تَصْدُقُ
٨ ـ ويومَ أثالى قد عرفتُ رسومَها
فعُجْنا إليها، والدموعُ ترقرق
٩ ـ وكادتْ تُبِين القولَ لمّا سالتُها
وتُخْبِرنى، لو كانت الدارُ تنطقُ
١٠ ـ فيا دارَ سلمَى هِجْت للعين عَبْرةً
فماءُ الهَوى يَرْفضُّ أو يَتَرَقْرَق

وقال زهير فى هذه القصيدة يذكر خلاف الجُلاح عليه:

١١ ـ أيا قومَنا إن تَقْبلوا الحق فانتهوا
وإلا فأنيابٌ من الحرب تَحْرُقُ
١٢ ـ فجاءوا إلى رَجْراجة مُكْفَهِرَّة
يكاد المديرُ نحوها الطرفَ يَصْعَقُ
١٣ ـ سيوف وأرماحٌ بأيدى أعزّة
ومَوْضُونَةٌ ممّا أفاد مُحَرِّق
١٤ ـ فما بَرِحُوا حتى تركنا رئيسَهُمْ
وقد مار فيه المَضْرَحِى المُذَلق
١٥ ـ وكائنْ ترى من ماجد وابن ماجد
له طعنَةٌ نَجْلاءُ للوجه يَشْهَقُ

وواضح أن القصيدة غير كاملة. فالبيت الحادى عشر هنا يسبقه قول أبى الفرج(٥٤) «وقال زهير فى هذه القصيدة يذكر خلاف الجلاح عليه»، ولكن ما أعقبه من الشعر لا ذكر فيه لهذا الخلاف، مما يدل على أن هذا القسم قد فُقد. ولا أشك أن هذا القسم الأخير (من البيت ١١ ـ ١٥) قد فقد منه جزء كبير. فليس من المعقول أن يتحدث زهير عن نصر كهذا سبقته وقعة نكراء ـ لرجل آواه وأكرمه «ولم يزل فى جناحه حتى كثر ماله وولده» كما قال أبو الفرج ـ فى خمسة أبيات. ولو انتهت إلينا هذه القصيدة كاملة لكانت فى الأغلب الأعم من أطول القصائد فى هذا الزمن المبكر فى تاريخ الشعر الجاهلى.

وليس طولها فقط هو مبعث أهميتها، بل أيضا مفتتحها بالطيف والخيال، واحتواؤها على النسيب والأطلال وسؤال الديار. ففى الأبيات السبعة الأولى يحدثنا عن طيف سلمى ألمّ به المنام قاطعا مَفاوز وقفارا، فأسعده زورها وتبسمها وحديثها، ثم أفاق على مر اليقظة. فأنّى له سلمى وهذه ديارها قفر قد استبانت له فعاج إليها ووقف بها حزينا ساكبا دمعه يسألها عن أهلها الظاعنين. ولو كان فى مقدور الديار أن تتكلم لأجابت هذه الدار عن سؤاله، رحمةً به وشفقة.

وإذا كانت هذه القصيدة قد بدأت بالطيف، فإن بائيته التى نظمها فى الوقعة نفسها تبدأ بذكر الطلل، يقول:

حَىِّ دارا تغيّرتْ بالجَناب
اقفرت من كَواعبٍ أتْرابِ

وللأسف الشديد لم يصل إلينا من المقدمة الطللية إلا هذا البيت، واقتصر أبو الفرج من هذه القصيدة على عشرة أبيات يصور فيها زهير هزيمة تغلب.

مما سبق نرى أن القصيدة الجاهلية بأقسامها المعروفة من طلل ونسيب ورحلة.. إلخ. اكتملت لها صورة واضحة المعالم منذ أوائل القرن الخامس، إن لم يكن أواخر القرن الرابع. فإن صح هذا ـ وهو صحيح إن شاء الله ـ كان عمر الشعر الجاهلى أقدم زمناً من القرن الرابع، فقصائد زهير بن جنَاب فى آخر هذا القرن لا تقل فنا واكتمالا عن قصائد القرن السادس، ومن ثم فلابد من آماد طوال من ميلاد الشعر العربى حتى يصل فى القرن الرابع إلى ما وصل إليه من إحكام، فلا سبيل، إذن، إلا إلى تتبع هذه المرحلة المبكرة من عمر الشعر الجاهلى.

يسعفنا تاريخ مملكة الحيْرة(٥٥) فيما نحاول استكشافه. استقرت القبائل البدوية منذ أمد بعيد فى الساحل الشرقى للجزيرة لخصبه ووفرة مياهه. وبمضى الزمن تكونت مجتمعات من هذه القبائل فى مدن وقرى، كانت أهمها جميعا مدينة الحيرة على بعد ثلاثة أميال من مدينة الكوفة الحالية. وكان سكان الحيرة يتكونون من تنوخ والعباد والأحلاف. أما تنوخ فكانت فى المنطقة التى تقع شرقىّ الفرات، بين الحيرة والأنبار. وكانوا بدواً يعيشون على الرعى ويقطنون الخيام. واستقرت العباد ـ وكانوا من قبائل شتى ـ فى الحيرة واختلطوا بسكانها الوثنيين. وكان العباديون نصارى تابعين للكنيسة النسطورية، وبها سموا: أى عُبّاد المسيح. ومن الجدير بالملاحظة أن الرابطة التى كانت توحّد بين سكان الحيرة أساسها دينى: المسيحية للعباديين، والوثنية للقبائل الوثنية التى كانت فى الحيرة قبل قدوم العباديين. وكان هذا على نقيض كل المجتمعات الأخرى التى كانت وحدتها تقوم أساسا على رابطة الدم. أما الأحْلاف فكانوا أناسا من قبائل مختلفة تتألف من عنصرين أساسيين؛ إما خلَعاء طردوا من قبائلهم لجرائم اقترفوها، وإما فقراء ضعفاء يبحثون عن مأوى وحماية.

إذا كان الغموض يلف حياة مؤسس مملكة الحيرة مالك بن فَهْم، فإن حياة وتواريخ الملوك الذين أتوا بعده من

الوضوح بمكان ـ، وهم: جَذيمة الأبرَش، عمرو بن عَدىّ، وابنه امرؤ القيس. ويؤكد لنا نقش النَّمارة[٥٦] الذى يمجد أعمال امرئ القيس بن عمرو أنه مات ودفن فى سوريا سنة ٣٢٨م. ويعتقد بعض الدارسين أن امرأ القيس بن عمرو كان من مناصرى ملك الفرس بهرام الثالث. ولما وقعت الحرب بين سنتى ٢٩٣ ـ ٣٠٢ بين بهرام ومنازعيه على عرش المملكة وهزم بهرام، ترك امرؤ القيس بن عدى الحيرة واتجه إلى سوريا، وهناك عينه الرومان حاكما على قبائل سوريا جمعاء[٥٧].

يذكر اليعقوبى أن امرأ القيس بن عمرو حكم خمسة وثلاثين عاما[٥٨]، فإذا كان قد ترك حكم الحيرة حوالى عام ٣٠٥ أو بعدها بقليل، فذلك يعنى أنه تولى حكمها بين سنة ٢٦٥ وسنة ٢٧٠م. ويذكر اليعقوبى، أيضًا، أن عمرو بن عدى والد امرئ القيس حكم خمسة وخمسين عاما، فإذا صح ذلك، فإن حُكْم عمرو بن عدى يكون قد بدأ بين سنة ٢١٠ وسنة ٢١٥. أما سنوات حكم جذيمة الأبرش فمن الصعب تحديدها، وهو شخص تاريخى لا مراء فى ذلك[٥٩]. الذى لا شك فيه أن هذه السنوات التى اقترحتها بناء على ما ورد فى اليعقوبى تقريبية وليست على وجه اليقين، ولكن الذى لا شك فيه أيضًا أن حكم هذه الأجيال الثلاثة: جذيمة وابن أخته عمرو بن عدى وابنه امرؤ القيس، استغرق قرنا من الزمان.

احتفظت لنا المصادر بأشعار قليلة من عهد جذيمة الأبرش وعمرو بن عدى. وبعض هذه الأشعار يرتبط بخبر جذيمة مع الزَّبَّاء، وهى أخبار لايعلم مدى صحتها، لذلك سوف أستبعدها ولا آخذها فى الاعتبار. ومن الخطأ الشديد أن نظن أن كل الأشعار التى تنتمى إلى هذه الفترة أشعار غير صحيحة. فالأشعار التى لا تدور فى فلك أسطورة جذيمة والزباء جديرة بالبحث والدرس، أهمها قطعة أوردها الطبرى فى تاريخه قيلت فى الأحداث التى أعقبت موت جذيمة. فبعد موته نازع رجل اسمه عمرو بن عبد الجن ابن أخت جذيمة عمرو بن عدى فى أمر المُلك. وآثر الجانبان وأنصارهما السلم، وتولى عدى مُلْكَ خاله، وفى ذلك قال عِدى بن عمرو:

دعوتُ ابنَ عبد الجن للسلْم بعد ما
تتابعَ فى غرب السَّفاه وكَلْسمَا
فلمّا ارعوى عن صدِّنا باعْترامه
مَرَيْتُ هواهُ مَرْى آم رَوائما

فأجابه عمرو بن عبد الجن مغضبا:

أما ودماء مائرات تخالُها
على قُلّة العُزَّى أو النَّسْر عَنْدَما
وما قدَّس الرهبانُ فى كل هيكل
أبيلَ الأبيلينَ المسيحَ ابنَ مريما

وعلق الطبرى على الشعر قائلا: «هكذا وُجد الشعر ليس بتام، وكان ينبغى أن يكون البيت الثالث: لقد كان كذا وكذا»[٦٠].

وتمام الشعر، وهو بيت واحد فقط أورده صاحب الحماسة البصرية (ـ ٦٥٦)[٦١]، وابن منظور (ـ٧١١)[٦٢]، والعينى (ـ ٨٥٥) [٦٣] وهذا البيت هو:

لقد هَزَّ منى عامرٌ يوم لَعْلَعٍ
حُساما إذا لاقى الضرَّيبة صمَّما

وليست هناك أسباب قوية تدعونا إلى الشك فى صحة هاتين المقطوعتين، فهما تشيران إلى أحداث تاريخية ثابتة الوقوع. وفوق ذلك، فإن مقطوعة ابن عبدالجن تصور الجو الدينى الذى كان سائدا فى الحيرة فى القرن الثالث. فمن المعروف ـ وقد أشرت إلى ذلك آنفا ـ أن أكثر سكان الحيرة كانوا نصارى، وكان بها عدد كبير من الكنائس والديارات تروع الإنسان كثرته، ويكفى أيسر نظر فى معجم البكرى ومعجم ياقوت (رسم: دير) وكتاب الدِّيارات لتبيّن ذلك[٦٤]. هذه الكنائس والديارات لم تلبث أن خرّجت ـ بعد إنشائها ـ علماء نشروا علمهم المصبوغ بصبغة دينية[٦٥]. نرى فى مقطوعة ابن عبدالجن إشارات واضحة إلى المسيحية، كما نرى أيضا إشارات إلى الآلهة الوثنية كالعزّى والنَّسْر [٦٦]

كانت الحيرة قبل الإسلام مركزا من المراكز الثقافية المهمة فى الجزيرة، وكان التعليم فيها منتشرا، وكانت بعض الكتاتيب تدرس العربية والفارسية كما نعرف من أمر عدى ابن زيد. لذا كانت الحيرة مقصد العلماء والشعراء. فلا عجب، إذن، أن تحفظ الحيرة تراثها بتدوينه. وقد اعتمد مؤرخو المسلمين على ما خلفته الحيرة فى بيَعها من مدونات لكتابة تاريخها. قال الطبرى(٦٧):

«قد حُدِّثت عن هشام بن محمد الكلبى أنه قال: إنى كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة، ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ سنيهم من بِيَع الحيرة، وفيها ملكهم وأمورهم كلها».

وقد ذكر Olinder أن الاكتشافات الأخيرة لبعض النقوش قد أكدت ما أورده ابن الكلبى عن تاريخ الحيرة(٦٨).

كانت الحيرة، كما ذكرت قبل، مقصدا للشعراء. يقول شوقى ضيف فى معرض حديثه عن النابغة الذبيانى(٦٩):

«ومعروف أن قبائل نجد كانت تدين بالولاء للمناذرة منذ قضوا على دولة كندة. وكانت تدخل ذبيان فى هذا الولاء، فطبيعى أن يقصد شاعرها النابغةُ النعمانَ بن المنذر وأن يضفى عليه مدائحه وسرَّ النعمان بوفوده عليه، فقربه منه ونادمه، وأجزل له العطايا والصلات، حتى أصبح شاعره الفذ. وكان بلاطه يموج بالشعراء من أمثال أوس بن حجر التميمى والمثقب العبدى ولبيد العامرى».

يذكر ابن سلام فى معرض حديثه عن حفظ الشعر الجاهلى وضياعه ما يلى(٧٠):

«وقد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه أشعار الفحول، وما مُدح هو وأهل بيته به، وصار ذلك إلى بنى مروان، أو صار منه».

وعبارة ابن سلام على إيجازها غاية فى الأهمية؛ لأنها تؤكد ما ذكره ابن الكلبى من «تدوين» ملوك الحيرة لآثارهم، وهى أيضًا بالغة الأهمية لأنها تثبت أن المناذرة كان عندهم ديوان لفحول الشعراء، ثم هى بالغة الأهمية مرة ثالثة لأنها تبيِّن لنا أن ملوك الحيرة جمعوا ما نُظم فيهم من مدائح، ولا إخال أن هذه المدائح كانت فى النعمان وأهل بيته الذين عاشوا فى زمنه، بل أظن ظنًا أن عبارة «أهل بيته» تعنى أجداده السابقين. ولا سبيل إلى معرفة ذلك على وجه اليقين. ولكن إذا نظرنا إلى الحقائق التالية: ١ ـ أن الحيرة كانت مركزا من مراكز الثقافة العربية فى العصر الجاهلى. ٢ ـ أن الكتابة كانت شائعة فى الحيرة، وبها دُوِّن تاريخ ملوكها. ٣ ـ أن ملوك الحيرة كان عندهم ديوان لفحول الشعراء، مما يدل على اهتمامهم بالشعر، وهذا أدعى إلى أن يدونوا الأشعار التى قيلت فى مديحهم، وقد كان. ٤ ـ أن شعراء كثيرين وفدوا إلى الحيرة من شتى أنحاء الجزيرة، وبعضهم أقام إقامة طويلة فيها كالنابغة. ٥ ـ وأن الشاعر كان ـ كما بينت من قبل ـ مؤرخا، ومن ثم فتاريخ العرب هو شعرهم، وشعرهم هو تاريخهم. أقول إذا نظرنا إلى كل هذه الحقائق حق لنا أن نستنتج أن عبارة «أهل بيته» عند ابن سلام تعنى الملوك السابقين على النعمان بن المنذر، وهذا بدوره يعنى أن الاهتمام بالشعر قديم جداً فى مملكة الحيرة. وفوق ذلك ليس هناك أى شئ فى عبارة ابن سلام يشعر أن النعمان هو الذى «أمر» بجمع هذا الشعر، ومن ثم فلابد أنه تقليد قديم سنَّه أجداده واتبع هو خطاه.

فإذا صح ما قدمته ـ وهو صحيح فيما أرجو ـ كانت مقطوعتا عمرو بن عدى وعمرو بن عبد الجن من أقدم الشعر الصحيح الذى وصل إلينا من تلك الفترة. وقد رأينا أنهما نظمتا عقب تولِّى عمرو بن عدى عرش الحيرة فى سنة ٢١٠/ ٢١٥ كما رجّحت. وليس هناك ما يدعو إلى الشك فى صحتهما، فلا ارتباط لهما بخبر قد يكون من اختراع القصاص، كما فى أخبار جذيمة الأبرش والزبّاء وقَصِير.

ومن الجدير بالملاحظة أن كلتا القطعتين نظمت على الوزن والقافية نفسيهما، أى أن عمرو بن عبد الجن أجاب

على مقطوعة عمرو بن عدى مستخدما الوزن والقافية نفسيهما اللذين استخدمهما عمرو بن عدى، مما يشير إلى ظهور فن النقائض فى هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الشعر العربى.

وحدة اللغة فى هاتين المقطوعتين، واتساق النَّظْم فيهما، واستخدامهما البحر الطويل، والالتزام بقافية واحدة لا تتغير، فضلا عما يشعر بوجود فن النقائض، كل ذلك يشير إلى أن الشعر العربى فى أوائل القرن الثالث قد وصل إلى مرحلة متقدمة، ولو وصلتنا قصائد كاملة لرأينا مصداق ذلك. هذا بدوره يؤدى إلى القول بأن بدايات الشعر العربى لابد أن تكون قبل مطلع القرن الثالث بكثير. وللأسف الشديد لم يصل إلينا من تلك الفترات ما نطمئن إليه. وقد حرصت هنا على ألا أنظر بعين الاعتبار إلى الشعر المرتبط بقصة جذيمة والزَّباء وقصير. وإن كنت أرى أن بعض هذا الشعر صحيح، ثم تزيّد فيه القصّاص فأصبح من العسير انتقاد الزائف من الصحيح. فإذا صح من هذا الشعر شىء، رجعنا بهذه المرحلة المتقدمة ثلاثين عاما؛ أى حوالى عام ١٨٠م.

وبعد، أرجو أن تكون هذه الدراسة قد أوضحت بعض جوانب فى الشعر القديم. فهى أولا تدعو إلى إعادة النظر فى الفكرة السائدة منذ ابن سلام؛ وهى أن المهلهل بن ربيعة كان أول من قصّد القصائد وذكر الوقائع، وهى ثانيا تثبت أن بعض معاصرى المهلهل من أمثال الفند الزِّمّانى والمرقّش الأكبر والحارث بن عباد لا يقلون أهمية عن المهلهل فى تقصيد القصائد، وهى ثالثا تبرز - للمرة الأولى فيما أعلم - أسبقية زهير بن جناب فى تقصيد القصائد، وهى رابعا تزيل بعض الغموض الذى يكتنف ابن حذام، وهى خامسا حاولت تحديد زمن بعض هؤلاء الشعراء، على ما فى ذلك من مزلة، وهى سادسا تزعم أن ما ينسبه النقاد ومؤرخو الأدب إلى نتاج القرن السادس، متوفر فى شعر القرن الرابع متأصّل فيه، وهى سابعا وأخيرا ترى أن أقدم شعر مكتوب لدينا يعود إلى العقد الأول من القرن الثالث، ثم على استحياء نقول بل ربما العقد الثامن من القرن الثانى الميلادى.

النتائج التى انتهت إليها هذه الدراسة تناقض ما يعتقده بعض الدارسين من أن «لغة الشعر الموحّدة» لم تشع إلا فى القرن الخامس[٧١]. وهذا الاعتقاد قائم على أن أقدم أشعار وصلتنا تظهر فيها وحدة اللغة والوزن والقافية تعود إلى أواخر القرن الخامس ويرتبط أكثرها بحرب البسوس! فى ختام مقاله عن نَقْش النِّمارة وما تعنيه عربية هذا النص يقول James Bellamy[٧٢]:

«هذا النص يضيف قرنا ونصفا من الزمان إلى عمر اللغة العربية، ولا عجب فى ذلك فهى لغة محافظة أشد المحافظة».

يعنى أن اللغة العربية لا يعود اكتمالها إلى أواخر القرن الخامس أو أوائل السادس بل إلى منتصف القرن الرابع. وتضيف الدراسة الحالية أكثر من قرن من الزمان إلى عمر اللغة العربية، وبالطبع الشعر الجاهلى.

هوامش:

(١) Reynold Nicholson. **A literary History of The Arabs** (London and New York: Cambridge University Press, 1985), p. 71.

(٢) James Lyall. **Translations of Ancient Arabian Poetry** (Edinburgh: William and Norgate, 1885), xvi.

(٣) **طبقات فحول الشعراء**، لمحمد بن سلام. قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، مطبعة المدنى، القاهرة ١٩٧٤. ١: ٢٦. وانظر أيضا **الشعر والشعراء**، لمحمد بن مسلم بن قتيبة. تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٦، ١: ١٠٤.

(٤) **طبقات فحول الشعراء** ١: ٣٨، وانظر أيضا **الشعر والشعراء** ١: ٢٧٩.

(٥) **الحيوان** لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. تحقيق: عبد السلام هارون - المجمع العلمى العربى الإسلامى، بيروت ١٩٦٩، ١: ٧٤.

(٦) **ديوان امرئ القيس**. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦١، ص: ١٣٢ - ١٣٣.

(٧) **الأغانى**، دار الكتب المصرية، ٩: ٨٩.

(٨) هل بينى وبين أستاذى العلامة محمود شاكر حوار طويل حول هذا النص وطريقة الجاحظ فى عدد السنين والحساب، ولا أشك أنه هو الذى هدانى

إلى ما أثبت ههنا عندما شرعت فى كتابة هذا المقال فى أواخر عام ١٩٩١. وكل ما كتبت وحققت من فضله وعلمه.

(٩) **نقائض جرير والفرزدق**، لأبى عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق: شارلز لايل ـ مطبعة بريل بليدن ١٩٠٥، ١: ٤٥، ٢: ٦٥٢ ـ ٦٥٤.

(١٠) **الحيوان**، ٦: ٢٧٧.

(١١) **المرجع السابق** ٦: ٧٢ ـ ٧٣.

(١٢) **طبقات فحول الشعراء**، ١: ٢٤.

(١٣) انظر Lyall,op. cit., p.xvii

(١٤) **العمدة**، لابن رشيق. تحقيق: محيى الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧٢، ١: ٦٥.

(١٥) **الأغانى**، ١١: ٥٤.

(١٦) انظر Hamilton Gibb. **Arabic Lierature: An Introduction**. (London: Oxford University Press, 1970), p. 29.

(١٧) **طبقات فحول الشعراء** ١: ٣٩.

(١٨) **الموشح**، لأبى عبيد الله المرزبانى، تحقيق: محمد على البجاوى، مطبعة دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٠٦.

(١٩) **المزهر**، للسيوطى. تحقيق: أحمد جاد المولى وآخرون منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٧، ٢: ٤٧٧.

(٢٠) **رسالة الغفران**، لأبى العلاء المعرى. تحقيق: عائشة عبد الرحمن، دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٣، ص: ٣٥٣ ـ ٣٥٤.

(٢١) **نقائض جرير والفرزدق** ٢: ٩٠٥. وانظر أيضا **الشعر والشعراء** ٢: ٢٩٧.

(٢٢) **مجالس ثعلب**، تحقيق: عبد السلام هارون ـ دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٠، ٢: ٤١١، ونقل ذلك السيوطى فى **المزهر**، ٢: ٤٧٧.

(٢٣) **الأغانى** ٥: ٢٤١، ولوقائع الحرب انظر ص: ٣٤ ـ ٦٤ من الجزء نفسه، **المعارف** لابن قتيبة، تحقيق: ثروت عكاشة ـ دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٩، ص: ٦٥، و**العقد الفريد** لابن عبد ربه، تحقيق: أحمد أمين وآخرين ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥، ٥: ٢١٣ ـ ٢٢٢، وبتفصيل مستفيض فى كتاب **بكر وتغلب**، مطبعة نخبة الأخبار، ١٣٠٥هـ.

(٢٤) للحارث. وملوك كندة انظر Gunnar Olinder. **The Kings of Kinda** (lund: Gleerup, 1927).

(٢٥) **منتهى الطلب فى أشعار العرب**، لابن ميمون. الجزء الخامس، نسخة جامعة yale. وفى كتاب **أشعار بكر وتغلب** قصيدتان، إحداهما حائية فى ثمانية وعشرين بيتا، والأخرى قافيّة فى تسعة عشر بيتا.

(٢٦) من النادر أن تبدأ قصيدة فى الرثاء بذكر الأطلال أو النسيب، وإنما تكون من بدايتها عن مصاب الرائى وصفات المرثى، وقد يتطرق الشاعر إلى الحديث عن الصيد، وفيه يُقتل الحيوان تأكيدا لحتمية الفناء، كما فى قصيدة أبى ذؤيب العينية.

(٢٧) **الشعر والشعراء**، ١: ٧٤ ـ ٧٥. وقد ناقشت كلام ابن قتيبة فى فصل نُشر فى **دراسات عربية وإسلامية**، ص: ٣١٣ ـ ٣٣٥، وهو كتاب مهدى إلى أستاذنا العلامة محمود محمد شاكر بمناسبة بلوغه السبعين، أطال الله بقاءه.

(٢٨) **طبقات فحول الشعراء**، ١: ٥٥، وانظر أيضاً كتاب **الأوائل** للعسكرى ٢: ٢٢٠. تحقيق: محمد المصرى وآخرين ـ طبع وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٥، والأغانى ٥: ٥٧، **المزهر** ٢: ٤٧٧.

(٢٩) **طبقات فحول الشعراء**: ١: ٣٩. وللبيت انظر **ديوان امرئ القيس**: ١١٤، ويقال له أيضاً: ابن خِذام وابن حمام.

(٣٠) **الشعر والشعراء**، ١: ١٢٨.

(٣١) **جمهرة أنساب العرب**، لابن حزم. تحقيق: عبد السلام هارون ـ طبع دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٤٥٦.

(٣٢) **المعمرون والوصايا**، لأبى حاتم السجستانى، تحقيق: عبد المنعم عامر ـ مطبعة عيسى البابى الحلبى، القاهرة، ١٩٦١، ص: ٧١.

(٣٣) **المؤتلف والمختلف**، للحسن بن بشر الآمدى. تحقيق عبد الستار فراج ـ مطبعة عيسى البابى الحلبى، القاهرة، ١٩٦١، ص: ٧.

(٣٤) **شعراء النصرانية**، للويس شيخو. مكتبة الآداب، القاهرة، بدون تاريخ ٢: ١٦٠، **ديوان الشعر العربى**، لأحمد سعيد (أدونيس) ـ دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٤، ص: ٥٧٦، **الإعلام** لخير الدين الزركلى، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٩، ٤: ٢٢٠.

(٣٥) **الأغانى**، ١٩: ١٥.

(٣٦) **الأغانى**، ١٩: ١٦، **الكامل فى التاريخ**، لابن الأثير ـ طبع بولاق، القاهرة، ١٢٩٠هـ، ١: ١٧٩.

(٣٧) **العقد الفريد**، لابن عبد ربه ٥: ٢١٣.

(٣٨) **الأغانى**، ١٩: ١٨ ـ ١٩، **الكامل فى التاريخ** ١: ١٧٩.

(٣٩) **العقد الفريد**، ٥: ٢١٣، **الكامل فى التاريخ** ١: ١٧٨.

(٤٠) **المؤتلف والمختلف**، للآمدى، ص: ٧.

(٤١) **العمدة**، لابن رشيق، ١: ٨٧.

(٤٢) **طبقات فحول الشعراء**، ١: ٣٥.

(٤٣) **الشعر والشعراء**، ١: ٣٧٩.

(٤٤) **العمدة**، ١: ٨.

(٤٥) **خزانة الأدب**، لعبد القادر البغدادى، تحقيق: عبد السلام هارون ـ مكتبة الخانجى، القاهرة، ٤: ٣٧٨.

(٤٦) **الأغانى**، ١٩: ١٥.

(٤٧) خلط بعض القدماء والمحدثين بين أبرهة هذا وأبرهة صاحب الفيل. انظر مثلا **الشعر والشعراء** ١: ٣٧٩، **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام**، لجواد على ـ مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٧٢، ٩: ٤٤٣.

(٤٨) انظر **تاريخ الشعر العربى إلى نهاية القرن الثالث للهجرة**، لنجيب البهبيتى ـ مكتبة الخانجى، القاهرة، الطبعة الرابعة، ص: ٢٦.

(٤٩) **الأغانى**، ١٩: ٢١.

(٥٠) **المعمرون والوصايا**، ص: ٣، **الأغانى** ١٩: ٢١.

(٥١) **الأغانى**، ١٩: ٢٠.

(٥٢) **طبقات فحول الشعراء** ١: ٣٦ ـ ٣٧، **الأغانى** ١٩: ٢٢، **المعمرون**: ٢٦.

(٥٣) **الأغانى** ١٩: ٢٤ ـ ٢٦.

(٥٤) **الأغانى** ١٩: ١٩.

(٥٥) Gustav Rothstein. **Die Dynastie der Lahmiden in al - Hira** (Berlin: Verlag von Reuther, Reichard, 1899), especially pp. 12 - 40. Philip Hitti. **the History of the Arabs**, the edition

(New york: st. Martin's Press, 1960), pp. 81 - 82. Irfan shahid, **"AL-Hira", in Encyclopaeidiae of Islam** 2 nd edition, 3: 462 - 63.

وانظر أيضًا **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، لجواد على ٣ : ١٥٥ ـ ٣١٣. وكتابا Gustav وجواد على يعالجان تاريخ الحيرة بالتفصيل، أما حتّي وشهيد ففيهما عرض موجز.

(٥٦) انظر James Bellamy. A New Reading of Namara Inscription," in **Journal of the American Oriental Society**. No. 105, 1985, 1: 31.

(٥٧) انظر المصادر التي أوردها جواد على في المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٣ : ١٩١، ولم يتح لي ان أراها، فالعهدة عليه.

(٥٨) **تاريخ اليعقوبي** (طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٦٠) ١ : ٢٠٩.

(٥٩)

Irfan Kawar (Shahid),

"Djadhima-al- Abrash in **Encyclopaedia Of Islam**, 2nd edition, 2: 365

(٦٠). **تاريخ الطبرى**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. طبع دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠، ١ : ٦٢٢. وانظر أيضا **معجم الشعراء** للمرزباني، تحقيق عبد الستار فراج ـ طبع عيسى البابي الحلبي، ١٩٦٠، ص: ١٨.

(٦١) **الحماسة البصرية**، لعلى بن أبي الفرج بن الحسن البصرى، تحقيق: عادل سليمان جمال ـ طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٧٨، القطعة رقم: ١٧٦.

(٦٢) **لسان العرب** (طبع بولاق) مادة لمع.

(٦٣) **المقاصد النحوية**، للعيني، بهامش خزانة الأدب (طبع بولاق)، ١٢٠٩هـ، ١ : ٥٠٠.

(٦٤) **كتاب الديارات**، لأبي الحسن على بن محمد المعروف بالشابشتي تحقيق: كوركيس عواد ـ مطبعة المعارف، بغداد ١٩٦٦.

(٦٥) انظر: Irfan shahid, **the Martyrs of Majran**(Bruxelles: Societe de Bollandistes Subsidia Hagiographica, No.49), pp. 269 - 272 انظر أيضا المصادر المذكورة في هامش: ٥٥.

(٦٦) ويذكر أبو الفرج أن من آلهتهم أيضا اللات وسبد، انظر **الأغاني** ٢ : ١٠٤.

(٦٧) **تاريخ الطبرى** ١ : ٦٢٨.

(٦٨) انظر: Gunnar Glinder. **The Kings Kinda**, p.

(٦٩) شوقي ضيف، **العصر الجاهلي**. طبع دار المعارف، القاهرة،الطبعة الثالثة، ص: ٢٦٩.

(٧٠) **طبقات فحول الشعراء** ١ : ٢٥.

(٧١) على سبيل المثال لا الحصر انظر: **العصر الجاهلي** لشوقي ضيف، ١ : ١٢١. **الشعر الجاهلي** لسيد حنفي، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧١، ص: ٢٣، مقدمات القصيدة العربية في الشعر الجاهلي لحسين عطوان ـ طبع دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠، ص: ٦٨، **دراسات في الأدب العربي**، لجوستاف فون جروبناوم ـ ترجمة إحسان عباس وآخرين دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٥٩، ص: ١٣٦ ،وانظر أيضا: J.W. Fück, "Arabiyya", in **Encyclopaedia of Islam**. 2nd edition, 1: 54 - 68.

(٧٢) (انظر هامش: ٥٦ لهذا المقال) p. 47

